

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

الجزء السادس والأربعون

ذو الحجة ١٤٠٠ هـ – نوفمبر ١٩٨٠ م

المشرف على المجلة:

الدكتور مهدى علام

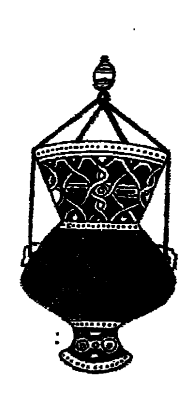
رئيس التحرير:

إبراهيم الترزى

الفهرس

تصدير :

بحوث ومقـالات :



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للدكتور مهدى علام

من مكتبتى

وهذه فذلكة أخرى عن صديق قديم من أصدقائى فى مكتبتى ، رأيت فيه ما يسعدنى أن أقاسم فيه قراء مجلتنا الأجلاء . وهم يعلمون أن الإنسان السوى (وأرجو أن أكون كذلك) لا يروقه أن يستأثر بخيرات الحياة ، مادية كانت أو معنوية ، حتى إننا نجد أن الشخص الأريب إذا سمع نكتة لطيفة لم يهدأ له بال حتى يجد أول صديق يقابله ليقول له : أسمعت أحدث نكتة ؟ ، ثم يقصها عليه .

وفى الكتاب الذى أتحدث عنه اليوم طرائف كثيرة، قصها مؤلفه ، واستمتعت بقراءتها منذ نحو نصف قرن ، وقصصت بعضها فى مناسبات بعد ذلك .

هذا كتاب ألفه أحد رجال السلك السياسى الإنجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن الحالى . اسم الكتاب « دبلوماسى فى الشرق » واسم مؤلفه السير آرثر هاردنج[1] وهو يقص ذكرياته فى المناصب التى شغلها فى القسطنطينية ومصر وزنجبار وأفريقيا الشرقية ، وثورة العرب فى تلك المنطقة ، ومعركة قوانين تحرير العبيد ، والاضطرابات فى جوبا لاند وأوغنده ، وجنوب أفريقيا ، وإيران (أو بلاد فارس كما كانت تسمى حينئذ) .

وكان عصر هذا السيد فى خدمته بمصر، جزءا من عصر السير إيفيان بارنج [2] الذى سمى فيما بعد (اللورد كرومر) .

---

(1) A Diplomatist in the East, by Sir Arthur H. Hardinge.

(2) Evelyn Baring.

وأنا فى غنى عن بيان أن هذا الدبلوماسى كان يمثل المصالح الإنجليزية حيثما ذهب ، وأنه فى معظم مواقفه كان يمثل الفكر الاستعمارى البريطانى الذى كان سائدا فى الحقبة التى تناولها الكتاب :

وحسبى أن أنقل الفقرة التى بدأ بها الفصل الخاص بعمله فى مصر :

«كان رئيسى فى مصر هو السير إيفلين بارنج (اللورد كرومر)، الذى كان يمثل ما وُفِّقَ فى وصفه اللورد ملنر بأنه الحماية المقنعة لإنجلترا على مصر . [1] ويواصل المؤلف وصفه لرئيسه كرومر قائلا : رجل قوى ، قليل الكلام ، ولكنه على استعداد دائما للحل الوسط ، جندى بحكم مهنته فى الحقبة الأولى من حياته . وهو مع ذلك أميل إلى التسامح حيث يكون ذلك بعيداً عن المصالح المهمة لدولته . كان من الجناح السياسى المعتدل لحزب الأحرار[2] ، كما كان دارساً متعمقاً للشعائر والأوضاع للقوانين الإسلامية . وربما كان أقوى ممثل أرسلته حكومته للقاهرة » .

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن الخديو توفيق فيقول رأيه : «كان رجلا طيباً ، ولكنه كان حاكماً ضعيفا . وكانت قوة الشخصية سمة كل من سبقوه من حكام مصر ، ولاة من قِبَل الخليفة فى تركيا ، منذ أن أصبحت مصر ولاية مستقلة استقلالا ذاتياً ، فى نطاق الإمبراطورية العثمانية .

« فمحمد على مؤسس الأسرة الحاكمة ، كان يحكم أساسياً بالإرهاب . فعندما كانت بعض الإصلاحات التى ينشئها تثير المعارضة بين بعض المحافظين من ذوى الآراء المتخلفة ، كان سريع الحسم فى القضاء على هذه المعارضة . فعندما كان المستر روجَرْز ، القنصل العام البريطانى ، فى زيارة رسمية لمحمد على ، أدهشه أنه لاحظ عندما اقترب من القلعة الشاهقة التى كان الوالى يقيم فيها ، أن عشرا أو اثنى عشرة جثة معلقة من المشانق ، وأن على صدر

---

(١) كان هذا فى سنة ١٨٨٥ ويشاء القدر أن يكشف عن هذه الحقيقة الخاصة برأى ملنر فى « الحماية » فى سنة ١٩٢٠ عندما كان رئيسا للجنة المعروفة باسمه ، والتى جاءت إلى مصر إبان ثورة ١٩١٩ لما سمته التحقيق فى أسباب الثورة ، ولما لم تنجح فى الاتصال بالشعب المصرى عادت مخفقة إلى إنجلترة ، ولكن المفاوضات التى نشأت بين وفد مصر برياسة الزعيم سعد زغلول ، والحكومة البريطانية ممثلة فى اللورد ملنر ، تحطمت جميع مراحلها على صخرة « الحماية » التى كانت مصر تصر على طلب النص على إلغائها (وكان القناع قد نزع عنها فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤) ، ولكن ملنر الذى وصفها بأنها مقنعة قبل ذلك بثلث قرن ، لم يكن لينزل عنها وضعف. وقد رفع عنها القناع .

(٢) حزب قوى كان يقاسم حزب المحافظين السلطة والنفوذ فى بريطانيا حتى ضعف بظهور حزب العمال واعتناقه معظم مبادئ الأحرار . واسمه القديم WHIG والحديث LIBERAL

كل جثة منها رقعة كتب فيها : (مشنوق لمعارضته لإصلاحات الباشا) » وقد سأل هذا القنصل العام ، محمد علي باشا ، عن نوع النقد الذى وجهه هؤلاء الضحايا للإصلاحات ، فأجاب الباشا : لا شيء مطلقا ، إنهم لم ينطقوا بكلمة خير أو شر تتصل بالسياسة . ولكنى سمعت أن هناك كلاما معاديا لحكومتى يتردد بين المشايخ العلماء وغيرهم من أصحاب النفوذ ، ورأيت أن أقضى على ذلك فى مهده ، فطلبت من رجال شرطتى أن يلقوا القبض على نحو عشرين من أعتى المجرمين سمعة ، وأشنعهم سلوكاً ، وأحطهم أخلاقاً ، فى القاهرة . وأن يعلقوهم على المشانق كما رأيت ؛ ليكون فى ذلك عظة سريعة لكل من تحدثه نفسه بالاعتراض على حكومتى . وقد علمت أن هذا الإجراء الاحتياطى الحكيم قد أدى التحذير المطلوب . »

ثم ينتقل المؤلف فى وصف من خلفوا محمد على حتى يصل إلى توفيق : وهنا يروى هذه القصة : أنه فى مستهل سنة ١٨٩١ مرض الخديو توفيق مرضا شديدا . ومع أن عددا من الأطباء الأوربيين استدعى لعلاجه ، وفيهم طبيب إنجليزى وآخر ألمانى ، لم يزده علاجهم إلا مرضا . وأخيرا نصح أن يستشفى بمياه حلوان ، وهى قرية صغيرة على مسافة قصيرة من العاصمة .

وأرسل السير إيفيلن بارنج برقية إلى وزارة الخارجية فى لندن يذكر فيها أنه زار الخديو توفيق فى حلوان . وكانت البرقية طبعاً بالشفرة ، فلما وصلت البرقية وحلت رموزها عرضت على وزير الخارجية بما ترجمته : « لقد عدت الآن من زيارة لجهنم (HELL) حيث يوجد الخديو الآن . وسموّه فى أشد العذاب ، ويبدو أنه ليس هناك ما يمكن أن يخفف من عذابه » .

وقد اتضح أن موظف الشفرة قد خلط بين مجموعتين من الأرقام إحداهما تعبر عن كلمة حلوان : (هلوان) (HELUAN) والأخرى تعبر عن جهنم (HELL) . ولكن الانطباع الأول فى الوزارة كان أن الخديو قد مات وأنه يلقى عذاب الجحيم . وبعد أن ينقل المؤلف تعليقات (دونينج ستريت) على البرقية قبل تصويبها وبعده ، ينتقل إلى وصف حالة نشأت فى قصر الخديو فى مصر . ذلك أن زوجته المفضلة زارها أحد المشايخ من مسجد من مساجد القاهرة ، وأخبرها أنه رأى فى منامه أن الخديو يتقلب فى ضروب من العذاب على أيدى الملكين اللذين يحاسبان الميت عقب وفاته ، وواسى ذلك الشيخ هذه الزوجة الحزينة بقوله : إن عقاب الخديو يمكن أن ينتهى إذا كانت هذه الأرملة تتقرب إلى الله بمنح هبة

سخية لأحد مساجد القاهرة . وما إن بذلت هذه المنحة حتى قص عليها ذلك الشيخ أنه رأى مناما آخر يواسيها فيه بأنه رأى الخديو فى نعيم شامل مع الحور العين فى الجنة ، وهى رؤيا لم يكن لها الأثر المرجو من العزاء لزوجة غيور على زوجها .

ومما تضمنه الفصل الخاص بمصر ما ذكره المؤلف عن وريث العرش بعد وفاة الخديو توفيق ، وهو عباس حلمى . وكان فى ذلك الوقت يدرس فى النمسا هو وأخوه الأصغر الأمير محمد على . ويصف المؤلف ذلك الوريث للعرش بأنه بمجرد أن علم بوفاة والده ، اعتد بمركزه ، وشرع يعامل أخاه الأمير محمد على بصلف وكبرياء يصلان إلى درجة الاحتقار . فعندما صعدا فى السفينة التى أبحرت بهما إلى الإسكندرية ، أكد منزلته الخديوية ، ففى أول ليلة كان الأخوان على ظهر الباخرة النمساوية اتخذ عباس حلمى مجلسه إلى مائدة العشاء ، وجاء أخوه محمد على فاتخذ لنفسه مقعدا إلى نفس المائدة . فكان نصيبه دفقة من التأنيب العنيف من الخديو الجديد ، قائلا له : افهم ، يا محمد على بك ، إن رعاياى لا يجلسون إلى مائدتى إلا إذا وجهت إليهم دعوة خاصة منى بصفتى مليكهم .

وهذا الأمير المتغطرس حتى على أخيه ، لقى من الإهانة ما تعجب له على يد ولى نعمته سلطان تركيا وخليفة المسلمين . فمؤلف الكتاب يذكر لنا أن عباس حلمى كان عليه أن يذهب إلى القسطنطينية (إستنبول) ليتلقى من « أمير المؤمنين » ولايته لعرش مصر . وقد قص على المؤلف أحد أعضاء « المعية الخديوية » التى صحبت الخديو إلى عاصمة الخلافة قصة الإهانات التى وجهت إليه وهو هناك . فعند ما وصل إلى « القرن الذهبى » ، بقى عدة أيام فى انتظار الإذن له بالمقابلة ، على أساس أن جلالة الخليفة أشغل بالا من أن يتذكر اسمه أو يجد وقتا لمقابلته . وبعد موالاة الإلحاح منه ، والرفض من حكومة الخلافة ، سمح له بمقابلة « الصدر الأعظم » (أى رئيس الوزراء) لبضع دقائق كان فى أثنائها موضع الازدراء المخطط . ولما حان الوقت الذى أذن فيه له بمقابلة السلطان ، صحبته هو ومعيته فرقة الموظفين الأتراك ، وقادوهم إلى حجرة ضيقة منخفضة السقف إلى درجة أنه يستحيل المرور منها على أى شخص — إذا لم يكن قزما — إلا بخفض الرأس نحو الأرض . وبعد أن دخل الخديو راكعا يكاد رأسه يلتقى مع ركبتيه ، ترك هكذا راكعا ، والسلطان لا يلتفت إليه ، بل كان يتحدث فى همس مع رئيس الوزراء الذى كان

جالسا على حشية بجانب قدمي مولاه . وبعد نحو عشر دقائق ، همس رئيس الوزراء فى أذن السلطان بأن عبدا مسكينا من القاهرة ، قد حضر ليركع أمام أمير المؤمنين . فأجاب أمير المؤمنين قل له : نظراً لخدماته ، فإننى شئت أن أمنحه حكم مصر مدى حياته . ثم أزيح الخديو هو ومعيته من باب تلك الحجرة الضيقة .

ويضيف المؤلف أن الخديو لم يحظ مرة واحدة بعد ذلك بمقابلة السلطان مع تعدد زياراته للعاصمة العثمانية ، وتدفق هداياه الثمينة لكبار الموظفين فى « الباب العالى » .

أعتقد أننى أطلت فيما كنت أقصد أن يكون مجرد فذلكة عن كتاب له فى نفسى ذكريات منذ قراءته من نصف قرن تقريبا . ولكن خبرين من أخباره يلحان على أن أذكرهما : أحدهما عن رئيس وزراء مصرى سابق وهو مصطفى فهمى باشا . فقد كتب عنه أنه من أصل ألبانى ، وأنه كان عميق الثقافة ، كريم المحضر ، رقيق الحاشية ، وأنهم يقصون عنه أنه ، فى حكم الخديو إسماعيل ، كُلّف أن يساهم فى القضاء على إسماعيل باشا صديّق المفتش الذى بلغ به الإسراف والسفه مبلغا حمل مولاه الخديو إسماعيل على طلب التخلص منه ، وأن مصطفى باشا فهمى ألقى القبض عليه بنفسه ، وأن أحد إبهاميه كان يحمل أثر أسنان إسماعيل المفتش الذى عضه حتى العظم فى أثناء معركة القبض عليه . ولكن مؤلفنا « آرثر هاردنج » يستبعد هذه القصة ، على أساس أن أخلاق مصطفى فهمى وسمته وسماته لا يمكن أن ترشحه لمثل هذا التكليف . ويؤيده فى شكه هذا أننى وجدت أحد المعاصرين لكل من مصطفى فهمى باشا والسير آرثر هاردنج ، يروى هذه القصة ثم يردفها باستبعاد صدقها . ذلك هو الدبلوماسى البريطانى المستشرق بلنت (Blunt) الذى سأذكره قبل الانتهاء من هذا التصدير . فهو يقول فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر[1] » (ص ٣٩ — ٤١) ما ملخصه أن الخديو أراد أن يتستر على ما ارتكبه من الغش فى تقاريره التى كان يقدمها إلى المندوبين الأوربيين الذين كانوا يقومون بفحص المركز المالى للبلاد . وحدث أن إحدى اللجان علمت من رياض باشا أن تزويرا قد حدث فيما قدم إليها . وهنا خشى الخديو

---

(1) Secret History of the English Occupation of Egypt.

أن يبوح وزير ماليته إسماعيل باشا المفتش بالحقائق . فرتب طريق الخلاص منه . فدعاه للركوب معه إلى أحد قصوره . وعند وصولهما تعلل الخديو بعذر لخروجه من الحجرة ، تاركا المفتش وحده ، ثم أرسل إليه ابنيه (حسين وحسن) وياوره (مصطفى بك فهمى) . وبعد أن ضربه الأميران الشابان تعجلا به إلى باخرة كانت على استعداد للإبحار ، وبعد مقاومة عنيفة قتل الرجل .

ويقول بلنت إن السير ريفرز ولسون يعزو قتل المفتش لمصطفى فهمى بناء على أوامر مولاه الخديو ، وأنه أكد ذلك مما حدث لمصطفى فهمى بعد هذه الحادثة من أنه أصيب بحمى شديدة ، وفى أثناء هذيانه قص القصة . ويعلق بلنت على ذلك بأن مصطفى فهمى لم يفعل سوى تسليم المفتش لإسحاق بك . ويقول بعض المعاصرين إن المفتش ألقى به فى النيل بعد أن ربط فى قدمه حجر ، وهو عمل كان متبعا مع بعض الناس . ويقول بلنت آخر الأمر : إن المؤكد هو أن مصطفى فهمى ، ذلك الشاب الهادئ الطبع الذى لم يألف مناظر العنف ، والذى يرجع أصله إلى العنصر الجزائرى ، مثله فى ذلك مثل المفتش ، قد أصابه الهلع عندما علم بالدور الذى كُلّف القيام به ، وأن ذلك أدى به إلى مرض خطير طويل المدى .

أما الشخصية الأخرى التى كتب عنها مؤلف كتابنا الذى نتحدث عنه فهى شخصية بلنت الذى أشرت إليه فى تأييد المؤلف فى الموضوع الخاص باغتيال إسماعيل باشا المفتش . وهى شخصية معروفة لكثير من المصريين المعاصرين ، أو المطلعين على تاريخ مصر الحديث ذلك هو ويلفريد بلنت (Wilfred Blunt) الذى يقول عنه مؤلف كتابنا : « إنه ألد أعداء الدبلوماسية البريطانية فى مصر : كان لامع الذكاء مع ميل إلى التطرف ، من أنصار الحركة الوطنية الإيرلندية . كان كاثوليكيا عميق الإيمان ، ولكنه فى الوقت نفسه من أعلم الناس وأعظمهم إعجابا بالإسلام . كان له مسكن بضاحية المطرية ، بالقرب من القاهرة ، وكان هو وزوجته يلبسان الملابس الشرقية إلا فى حضور قداس الكنيسة أو فى وليمة رسمية .

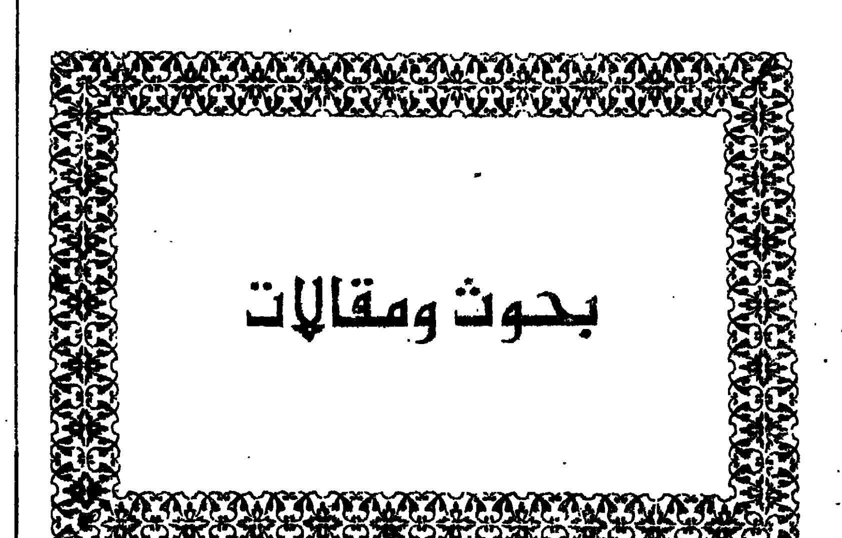
« وكان من أقوى المؤيدين للحركة الوطنية فى مصر ، ومن أشد الناس بغضا للشعب البريطانى ، وللإمبراطورية البريطانية » .

بقى أن أقول إن (بلنت) هذا قد ضمّن صداقته وعلاقته بمصر ، وبكفاحها، وعلى الخصوص الثورة العرابية ، كتابه الذى أشرت إليه، وهذا الكتاب ظهرت له ترجمة عربية فى عام ١٩٢٩ وقد صدر بمقدمه ممتازة فى أكثر من مائة صفحة بقلم الصحفى المعروف، الأستاذ عبد القادر حمزة . أما ترجمة الكتاب فإنها سيئة ، لأن الذى قام بها مترجمو الجريدة فى ذلك العهد ، ترجموها فصولا متناثرة ، بأقلام مختلفة . وربما يكون له طبعة أخرى لم أبحث عنها[1] .

محمد مهدى علام
الأمين العام للمجمع
والمشرف على المجلة

---

(١) ويجدر بى أن أشير إلى حقيقة وقفت عليها اليوم مصادفة . فبينما كنت أقلب أحد « أصدقاء مكتبتى » هربا من قيظ الحر ومهادنة لمشقة رمضان ، وجدت فى ذلك الكتاب تلك الحقيقة المهمة . واسم الكتاب « دليل الكتب المؤلفين البريطانيين » من سنة ١٦٠٠ حتى ١٩٣٢ (KEY BOOKS OF BRITISH AUTHORS) تأليف ANDREW BLOCK جاء فى ص ٤٨ (طبعة ١٩٣٣) تحت اسم « بلنت » أن أعظم كتبه هو « يومياتى : وهى تسجيل شخصى للأحداث» (My Diaries, Being a Personal Narrative of Events) وأن هذا الكتاب نشر فى لندن ١٩١٩ — ١٩٢٠ ولكن المجلد الأول سحب من التوزيع . ويبدو أن النسخة المترجمة وكذلك الأصل الانجليزى الذى بين أيدينا ليس إلا المجلد الثانى . ويمكننا أن نخمن، فى شىء من الاطمئنان، أن سبب سحب المجلد الأول من التوزيع هو اشتماله على ما يكنه المؤلف من بغض ونقد لبريطانيا وإمبراطوريتها ، وأن هذا الجزء لابد أنه كان مشتملا على بعض فظائع الاستعمار . ويزكى استنتاجنا هذا أن سحب ذلك المجلد كان إبان ثورة ١٩١٩ التى اندلعت فى مصر ، وعاصرتها ثورة الهند .



بحوث ومقالات

حياتنا الفكرية فى نصف القرن الأخير

(١)

للدكتور ابراهيم مدكور

الحياة الفكرية فى مجتمع ما وليدة جهود الرواد والمتخصصين ، وثمرة استجابة الشباب وجمهور المثقفين وهى فى حاجة ماسة إلى وعى ويقظة ، وتفتح وحب استطلاع . وتبلغ أوجها عادة فى عهود الاستقرار السياسى والازدهار الحضارى ، وهكذا كان شأنها فى عصر بركلين لدى اليونان فى التاريخ القديم ، وفى صدر الدولة العباسية لدى المسلمين فى القرون الوسطى ، وفى القرن السابع عشر لدى أوربا فى التاريخ الحديث .

١ — عوامل ومقومات :

للحياة الفكرية عواملها ومقوماتها ، ومن أخص هذه العوامل الرغبة الأكيدة فى تفهم الكون والإنسان . والبحث فى الكون يقود لا محالة إلى البحث عن خالقه وبارئه ، وبذا تكتمل قضايا الفكر الإنسانى الكبرى ، وهى الله ، والعالم ، والإنسان ، وحولها دارت الدراسات الفلسفية منذ نشأت إلى اليوم ، وإن تغلبت واحدة منها على الأخرى أحيانا . ومن الخطأ أن يظن أن العلم عاش بمعزل عن الفلسفة ؛ فتحت كنفها نشأ ، وفى ظلها نما وترعرع : وعدت العلوم الرياضية والطبيعية من قديم جزءا من الفلسفة : وكبار المفكرين فى التاريخ قديمه وحديثه فلاسفة وعلماء كأرسطو بين اليونان ، وابن سينا بين المسلمين ، وروجر بيكون بين اللاتين وديكارت بين المحدثين : وفى الفكر الإسلامى بخاصة علماء برزوا بفلسفتهم بقدر ما برزوا بعلمهم كأبى بكر الرازى طبيب الإسلام الأول ، وابن الهيثم مؤسس علم الضوء والبيرونى فلكى الإسلام الكبير .

ولا نزاع فى أن العلم حاول أن يستقل شيئا فشيئا عن الفلسفة وأصبحنا أمام علوم متعددة ومتنوعة ولكل منها موضوعه الخاص ومنهجه الواضح وقوانينه الثابتة : وبين الدراسات الفلسفية الصرفة ما نحا نحو هذا الاستقلال ، وأخذ نفسه بالمناهج العلمية والتجريبية كعلم النفس ، وعلم الاجتماع : ويهدف البحث الفكرى علما كان أو فلسفة إلى فهم مظاهر الطبيعة واستخدامها أحسن استخدام وتوضيح مشاكل الكون والإنسان فلم تنقطع الصلة بين العلم والفلسفة ، برغم التخصص الدقيق واستقلال العلوم بعضها عن بعض ، ولا حياة لفلسفة بدون متابعة كشوف العلم ومعطياته :

(*) كلمة ألقيت فى المجمع العلمى المصرى بمناسبة بلوغه الخمسين من عمره .

ومن مقومات الحياة الفكرية السليمة حرية شاملة تفسح المجال للأخذ والرد ، ولا تضيق صدراً بالنقد والمعارضة . ومن مقوماتها البحث الدقيق ، والرأى الأصيل ، والفكر العميق ، فلا تقنع بمجرد الأخذ والمحاكاة بل تحرص على أن تضيف وتجدد ، وأن يكون لها إسهام فى بناء الفكر الإنسانى. تعنى بالقول أكثر مما تعنى بالقائل ، فتحذر التعصب الأعمى ، وتتقى الميول والأهواء ، وتزن الأمور بميزانها الصحيح . تحكم العقل ، وهو إن استقام ، أصدق حكم فتحارب الخرافات والأباطيل ، وتزيل الشبه والأوهام . تساير الزمن ، وتعيش فى عصرها ، وان أغفلته تخلفت وانقطع بها الطريق . فلا ترفض الجديد لمجرد أنه جديد ومنه دون نزاع ما هو قيم ونافع . ولا تسبغ على الماضى قداسة لا يستحقها ولا تبقى هالة عليه على مر الزمن . وإذا كان للأوائل فضل السبق ، فإنه يجدر بهم أن يحذوا حذوهم وأن يعطوا عطاءهم ، وأن يتحرروا من القيود والأغلال ولا حياة لفكر فى أمة بمعزل عن التيارات العالمية ، وصلة العالم بعضه ببعض فكريا أصبحت اليوم من اليسر والسرعة بحيث لا يستطيع أن يعوقها عائق .

٢ ـ عصور الانحطاط والظلمة :

تلك هى الحياة الفكرية المثلى ، وبودى أن نعرف أين نحن منها فى نصف القرن الأخير . ولا نزاع فى أنا عشنا فيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر الميلاديين فى ظلمة قاتمة ، قنعنا فيها بأن نردد أقوال السابقين ، واكتفينا بأن نلخصها فيما سمى « بالمتون » أو أن نوضحها دون إضافة تذكر فيما سمى « بالشروح » « والحواشى » ، « والتقارير » وكل ذلك فى الغالب مكرر لا جديد فيه وشاعت فينـــا تلك القولة التى قد تردد حتى اليوم ، وهى : « ما ترك الأول للآخر شيئا » وهى قولة لا يؤيدها واقع ، ولا يقرها عقل ولا دين : وكانت حياتنا الفكرية فى تلك القرون الغابرة ضيقة النطاق ، مقصورة على طائفة محدودة ، تعيش فى الماضى ، ولا تعبأ بالحاضر ، تنكر التطور والتقدم ، ولا تشعر بحاجة إلى رأى أو اجتهاد .

٣ ـ الوعى الجديد :

وفى أخريات القرن الثامن عشر فتحت الحملة الفرنسية أعيننا على أمور لا عهد لنا بها ، وغرست فينا بذرة وعى وفكر جديد فأدخلت معها فن الطباعة الحديث ، وهو وسيلة ناجعة من وسائل نشر الفكر وتداوله . واصطحب نابليون معه أيضا أربعين من كبار العلماء الفرنسيين الذين جاسوا خلال الديار ووصفوا طيور مصر وحيواناتها وحللوا تربتها وكشفوا من معادنها وصخورها ورسموا معالم اقتصادها ، وخلفوا ذلك الكنز الثمين الذى أغفلناه هزمنـــا طويلا ، وهو « وصف مصر » Description de le' Egypte وأسسوا معهدا لا يزال قائما إلى اليوم ، وهو (المجمع المصرى) L'istitut d' Egypte وقد حرص نابليون على أن يرأسه بنفسه ؛

ثم جاء محمد على (١٨٤٩) فغذى هذا الوعى ونماه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقاد حركة علمية طوال أربعين سنة . فأنشأ مدارس للطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية وأرسل إلى أوربا وفرنسا بخاصة بعثات متلاحقة أولاها سنة ١٨٢٦ ، وكانت مكونة من ٤٠ طالبا ، على رأسهم شيخهم وإمامهم رفاعة الطهطاوى الذى استطاع بعد عودته أن يضئ أول مشعل النهوض والتجديد. ولم يقف محمد على عند المدارس العالية ، بل أنشئت فى عهده مدارس ابتدائية وثانوية ، ولم يتردد فى أن يستعين بالعلماء والخبراء الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، وطبعت الثقافة المصرية بطابع فرنسى ظل سائدا حتى نهاية القرن التاسع عشر . وسمح بإنشاء مدارس أجنبية دينية ومدنية ، كان لتعليم اللغات الحية فيها شأن كبير . وفتحت أبوابها لأبناء المصريين ، إلى جانب أبناء الجاليات الغربية ، وتخرج فيها نفر ممن تولوا القيادة الفكرية والسياسية فى القرن العشرين .

ولو قدر لأبناء محمد على وخلفائه أن ينهجوا نهجه ، وأن يتابعوا خطاه لكان لحياتنا الثقافية والفكرية اليوم شأن آخر غير ما هى عليه . ولكنهم مع الأسف هدموا ما بنى ، فأغلقوا المدارس العليا ، وأوقفوا إرسال البعوث الطلابية إلى أوربا :

٤ ــ القرن العشرون :

والربع الأول من القرن العشرين هو الدعامة الحقيقية لحياتنا الفكرية المعاصرة : وقد مهد له مصلحان كبيران هما جمال الدين الأفغانى (١٨٩٢) ومحمد عبده (١٩٠٥) اللذان دعيا فى قوة إلى التجديد والتحرر السياسى والفكرى . وأدع جانبا التحرر السياسى الذى أولع به الأفغانى ، وأقف قليلا عند التحرر الفكرى الذى آمن به محمد عبده . فنادى بحرية البحث ، وأعلن فى وضوح أن الدين لا يتنافى مع العقل وحاول ما وسعه التوفيق بين العقل والنقل على نحو ما صنع أسلافه من كبار المفكرين الإسلاميين : وفتح باب الاجتهاد الذى أغلق جهلا وخطأ فى عصور القهر والظلمة ، وطالب بإصلاح المحاكم الشرعية ، واقترح إنشاء مدرسة خاصة لتخريج قضاتها على غرار مدرسة الحقوق التى تخرج القاضى المدنى . وهى مدرسة القضاء الشرعى التى لم تعمر طويلا مع الأسف ، برغم أنها وسيلة ناجعة من وسائل التقدم والتطوير . واستطاع جمال الدين ومحمد عبده بدروسهما ومقالاتهما فى الصحف والمجلات أن يبعثا شعورا قويا بضرورة الإصلاح والتجديد ، وأن يوقظا وعيا صادقا لتقبل الجديد ، وأن يكونا جيلا سار على الدرب ، أمثال قاسم أمين ، ولطفى السيد ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق .

وصاحب هذا إنشاء جامعة أهلية عام ١٩٠٨ وهى « الجامعة المصرية القديمة » ؛ وقد وجهت نحو ضرب من التلاقى بين الشرق والغرب ؛ فقام على أمرها بعض كبار المستشرقين ، أمثال : نللينو الإيطالى ، وماسنيون الفرنسى ، وأسهم معهم بعض الأساتذة المصريين ؛ ولم تتردد هذه الجامعة الناشئة فى أن تبعث بعوثا إلى أوربا كان من بين أعضائها منصور فهمى ، وأحمد ضيف ، وطه حسين وفى أقل من عشرين عاما تحولت الجامعة الأهلية إلى جامعة أميرية ، هى « جامعة فؤاد الأول » ، التى أصبحت اليوم « جامعة القاهرة » ، وعن هذا نشأت أخيرا عدة جامعات لا أدرى إن كنا قد أعددنا لها حقا إعدادا كافيا ، ومنها ما هو أشبه بالمعاهد العليا منه بالجامعات واتسمت جامعة فؤاد الأول بانفتاح فكرى وثقافى قل أن نجد له نظيرا فى حياة الجامعات المعاصرة ، فاستعانت بالأساتذة الأجانب من مختلف الجنسيات فى الكليات والأقسام وقامت أقسام اللغات الحية بخاصة على أساتذة من أبنائها والناطقين بها ؛ وتوسعت هذه الجامعة توسعا ملحوظا فى بعوثها إلى الخارج ، فكانت توفد منهم كل عام عشرات بل مئات ؛ وحاولت أن تجعل منهم أساتذة المستقبل ، وهم بالفعل الذين اضطلعوا بعبء التعليم العالى والجامعى فى الربع الثانى من هذا القرن ؛ ولم يقف عطاؤهم عند مصر بل امتد إلى الخارج ، والتعليم الجامعى فى العالم العربى بعامة مدين لهم بقسط كبير .

وأخذت جامعة فؤاد الأول نفسها بقدر من التقاليد الجامعية ، فاستمسكت باستقلالها ، ودافعت عنه ما وسعها ، وضربت فى ذلك أمثلة رائعة ، أستطيع أن أذكر من بينها مواقف للطفى السيد ، وطه حسين ، وعلى مشرفة ؛ وآمنت أيضا إيمانا جازما بحرية البحث ، فأفسحت المجال للباحثين ، واتسع صدرها لشتى الآراء ؛ ولولاها ما بلغ حديث الشعر الجاهلى مثلا ما بلغه من عنف وقوة ، وبصرف النظر عن موضوع هذا الحديث فإنه دون نزاع كان ذا شأن فى خلق جو من التحرر الفكرى ، وفى توجيه الأذهان نحو النقد والتمحيص . والحقيقة بنت البحث ولا يضيرها فى شىء أن تقلب الأمور على وجوهها المختلفة . وأيقنت الجامعة كذلك بأن العلم لا وطن له ، وأن علينا أن نطلبه ولو بالصين . فتابعت سنتها فى الاستعانة بالأساتذة الأجانب الدائمين والزائرين ، وبقينا نزاملهم ، ونعيش إلى جانبهم ، ونتعاون معهم حتى أوائل العقد السادس من هذا القرن ، ثم كانت القطيعة أو المقاطعة التى لم نعدل عنها إلا أخيرا ، وفى شىء من التردد والتلكؤ .

وبوجه عام أخشى أن يقال : أين نحن اليوم من التقاليد الجامعية ؟ وهل لا يزال إيماننا بها راسخا كما كان بالأمس ، وهل نحرص حقا على تعزيزها وإدعامها ؟

• ـ نصف القرن الأخير :

في هذا الجو قامت حياتنا الفكرية في الربع الثاني من القرن العشرين ، وخرجت من حيرتها بين الشرق والغرب بين القديم والجديد ، بين التقليد والابتكار ، فآمنا بأن عالم الفكر لا تحده حدود مكانية ولا زمانية ، وأن للشرق تراثه وقيمه ، وأن للغرب علومه وفنونه ، والخير كل الخير في أن نلائم بين ذلك كله ، وأن نتخير منه أحسنه وأقومه ، وفي وسعنا أن نفاضل ونوازن ، وأن نحكم ونفصل . فاستعدنا ثقتنا بأنفسنا ، وتخلصنا من ربقة التقليد الأعمى وأدركنا أن من حقنا أن نجدد ونبتكر ، وأن ننشئ ونبدع ، وأن يكون لنا إسهام في ميدان الأدب والفن ، والعلم والتكنولوجيا ، إلى جانب ما تسهم به أوروبا وأمريكا. وهل لي أن أعود بكم إلى بعض صور من تلك الحرية الحائرة التي عشنا فيها في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين ، واكتفي بمثلين اثنين ، ينصب أولهما على المرأة ، ويدور الثاني حول اللغة الوطنية .

حرية المرأة ونشاطها :

فذهب فريق منا ، ولعله كان الغالبية الغالبة إلى أن تسدل الأستار والحجب على المرأة المصرية ، وأن يقصر نشاطها على شئون بيتها ، وأن يوصد أمامها باب العلم والتعليم . ورأى فريق آخر أن لها ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات ، فتسهم في ميادين الحياة على اختلافها ، وتتسلح بأسلحة العصر جميعها . وكان موضوع السفور والحجاب من الموضوعات التي سالت فيها أقلام وملئت صحائف ، وبقيت منه ذيول في العشرينيات والثلاثينيات ولكن الحياة الجامعية قضت عليه قضاء تاما . وللطفي السيد في هذا يد طولى ، وها أنتم أولاء ترون كيف تقف المرأة اليوم إلى جانب الرجل في شتى الميادين ، ولها عطاء وبذل ملحوظان في سبيل قومها ووطنها . وليس في جامعاتنا وكلياتنا ما يعز على الفتاة المصرية أن تنافس فيه ، وكثيرا ما أحرزت قصب السبق ، وأصبح لها إسهام ملحوظ في حياتنا الفكرية .

ويقيني ألا رجعة في هذا المضمار بحال ، برغم ما يلحظ أحيانا من غلو في بعض مظاهر التحجب والتستر ، ولن تنزل المرأة المصرية عن حق اكتسبته ، وهي جادة في كسب حقوق أخرى .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع

لماذا نعنى بتراثنا

للدكتور احمد الحوفى

أولا : **صور** الحقائق المجمع عليها

أن تاريخ الأمة العريقة هو جذور روضها الضاربة فى أعماق ماضيها ، وأصولها التى تقوم عليها سيقانها ، وترتوى منها أغصانها وتزدهر براعمها ، وتنضج ثمراتها .

لهذا كان تراث الأمة الفكرى والفنى هو أعز ماقى ماضيها المجيد التليد ، تستمد منه القوة والحيوية ، وتهتدى به فى دياجير الأحداث ، وتقيم عليه حاضرها المشرق الباهر ، وتباهى به وتكاثر وتفاخر .

ولقد كان لتراثنا العربى الفكرى والفنى والحضارى تقدير عظيم لم يزل يثير ويستدر ثناء العلماء من الشرق والغرب على السواء ، لأنه كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر ، من الواجب علينا أن ننقب عنها ، وأن نكشف عن فوائدها ، وأن نذيع نفائسها ، وألا نتركها نهبا للضياع ، قانعين بالمفاخرة بها والمباهاة .

ولقد يتساءل بعض الناس عن جدوى الحفاوة بهذا التراث العربى القديم .

بل إن بعضهم تساءلوا عن هذا فى جهارة وجراءة .

ولعل خير مانصنع بهؤلاء أن نرد عليهم بهذه الفكاهة ، وهى أن الجاحظ الكاتب العربى العظيم كان يجلس يوما فى السوق يتناول الطعام ، فمرت به امرأة حسناء فارعة الطول ، فأراد أن يداعبها ، فقال لها : ياهذه انزلى كلى معى ، فقالت له : بل اصعد أنت لترى الدنيا .

فلو أن هؤلاء الذين ينكرون علينا حفاوتنا بالتراث العربى تعالوا بتفكيرهم لعلموا أن تراثنا هو ماضينا العريق المجيد الموصول بحاضرنا الناهض ، ولأيقنوا أنه لولا هذا التراث لاضطررنا أن نبدأ علومنا ومعارفنا من ألف باء .

ثانيا : وفى هذه المناسبة المواتية يجدر بنا أن ننبه المستهينين بالتراث والغافلين عن قيمته إلى أنه يجب علينا أن نسجل تقديرنا العظيم وعرفاننا بالجميل لأربع طوائف من السلف :

— ١ —

أما الطائفة الأولى التي نحنى رءوسنا تقديرا لها ، وإعظاما لشأنها ، وثناء عليها ، فهم العلماء والأدباء الذين ألفوا في كل علم وفى كل فن ، فأفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير ، نثرا وشعرا وعلما وفنا ، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها :

وهم عشرات الألوف فى كل مصر وفى كل عصر ، طيب الله ثراهم ، وجزاهم خير مايجزى به العاملين النافعين المخلصين .

— ٢ —

وأما الطائفة الثانية فهم أرباب المكتبات العامة وأصحاب المكتبات الخاصة من ملوك وأمراء وحكام وأثرياء وعلماء ، لأنهم صانوا كنوز التراث حتى وصلت إلينا تطالبنا بنشرها :

ولولا هذه الكنوز التي صانوها ماعرفنا شيئا عن تفسير الطبرى (٣١٠ هـ) والزمخشرى (٥٣٨ ك) والقرطبى (٦٧١هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وغيرهم :

وماعلمنا شيئا من مسند مسلم (١٠٨ هـ) وابن حنبل (٢٤١ هـ) والبخارى (٢٥٦ هـ) ونظرائهم :

وما وقفنا على شيء من معجم الخليل ابن أحمد (١٧٥ هـ) وابن دريد (٣٢١ هـ) وابن سيده (٤٥٨ هـ) وابن منظور (٧١٧هـ) وأمثالهم :

وما أخطنا بكثير أو قليل من شعر امرئ القيس ، وجميل بثينة (٨٢ هـ) وأبي تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) والمتنبى (٣٥٤ هـ) والمعرى (٤٤٩ هـ) وأشباههم . وما درينا شيئا عن نثر ابن المقفع (١٤٢ هـ) والجاحظ (٢٥٥ هـ) وأبي حيان التوحيدى (٤١٤ هـ) والحريرى (٥١٥ هـ) ومن على شاكلتهم :

وما تعرفنا طب ابن سينا (٤٢٩ هـ) وابن رشد (٥٧٤ هـ) وابن النفيس (٦٨٧هـ) وأمثالهم .

وما ألممنا بشيء من فلسفة ابن سينا وابن رشد وإخوان الصفا وأضرابهم .

وهكذا يتجلى أن تراثنا هو النهر الزاخر الفياض الذى يمدنا بالغذاء والماء والنماء والازدهار :

فإذا ماأردنا أن تقرب إلى الأذهان ضخامة ماخلف أسلافنا من تراث فعلينا أن نتصور سعة العالم الإسلامى الممتد من شرق الصين إلى الأندلس ، وأن نتخيل أن هذا العالم الفسيح ثرى بآلاف المكتبات العامة والخاصة التي تعمر كل مدينة كبيرة أو شبه كبيرة ، لنجد فى كل منها مكتبة أو مكتبات حافلة بالمؤلفات التي أورثنا إياها آباؤنا السابقون ، يتردد عليها المشغوفون بالقراءة والاطلاع والنقل ، ولنجد فى كثير من القصور الخاصة مكتبات يحرص أربابها على تزويدها بأنفس الكتب وأندرها ، ولنرى فى كثير من

المساجد والكنائس مكتبات موقوفه مباحة للقراء .

وليس أدل على وفرة الكتب التى كانت تزخر بها هذه المكتبات من الأمثلة القليلة التى أسوقها .

بلغ عدد الكتب التى كانت فى بيت الحكمة الذى أنشأه الخليفة المأمون ببغداد (٢١٨ هـ) أربع مئة ألف كتاب .

وكان فى القاهرة دار الحكمة التى أنشأها الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، وقالوا إنها حوت أكثر من مليون كتاب ونصف مليون وكان بها أكثر من ثلاثين مخطوطة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، منها نسخة بخط الخليل نفسه .

وبلغ من شغف العزيز بالله باقتناء الكتب أنه اشترى نسخة واحدة من كتاب تاريخ الطبرى بمئة دينار .

وكان للعرب فى الأندلس سبعون مكتبة عامة ، منها مكتبة قرطبة التى ضمت نحو نصف مليون كتاب .

وكان فى مكتبة الخليفة الأموى الحكم الثانى بقرطبة ست مئة ألف كتاب ، وبها أربعة وأربعون مجلداً للفهارس .

وقد جمعت مكتبة منصور بن نوح السامانى سلطان بخارى نحو مليون ونصف مليون كتاب .

واشتملت مكتبة طرابلس الشام على نحو ثلاثة ملايين كتاب ، وكان لأصحاب هذه المكتبة وهم قضاة آل عمار عشرات الألوف من النساخ .

وأما مكتبات الأفراد فهى كثيرة ، منها مكتبة على بن يحيى المنجم ، التى أباح للقراء أن يترددوا عليها ، وقد ذكر أبو معشر المنجم أنه أقام بها زمنا وقرأ ونقل .

ومنها مكتبة الصاحب بن عباد التى كانت تحتاج إلى أربع مئة بعير لحملها ، وكان فهرسها وحده يشغل عشرة مجلدات .

ولم تكن هذه المكتبات مقصورة على ما كتب باللغة العربية ، بل كان فى بعضها مئات من الكتب التى ألفها العلماء باللغة اليونانية والفارسية .

ويكفى أن نعلم أن الخليفة المأمون (٢١٨هـ ٨٣٣ م) نقل إلى بغداد مئات من الكتب اليونانية التى كانت فى القسطنطينية ، وأنه عقد الصلح مع الامبراطور على أن يبيح له نقل مايختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة فى بلاد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع فانفذ المأمون جماعة ، منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن ماسويه وغيرهم ، فنقلوا ما اختاروه ، فلما حملوه إلى المأمون أمرهم بترجمته ، فترجموه ، وكان من هذه الكتب كتاب بطليموس فى الرياضة .

ولما صالح المأمون حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث إليه الكتب اليونانية التى

بالجزيرة ، فبعثها ، وأقام المأمون سهل بن هارون قيما عليها .

وقد شارك فى جمع الكتب واستنساخها بنوشاكر ، ذكر محمد بن إسحاق أن ممن عنوا بإخراج الكتب من بلاد الروم بنوشاكر وهم محمد وأحمد والحسن ، وأنهم أنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم ، فتعلم اليونانية ، وجاءهم بطوائف من الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب والأرثماطيقى .

وكان قسطا بن لوقا البعلبكى قد حمل معه شيئا ، فنقله وترجم له .

وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من التراجمة ، منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم ، وبلغت أرزاق هؤلاء التراجمة خمس مئة دينار فى كل شهر .

ولقد ضمت المخطوطات التى فى المكتبات العامة والخاصة علوما وفنونا شتى ، منها اللغة والنحو والصرف ، ومنها الأدب والبلاغة والنقد ، ومنها التفسير والحديث والأصول وعلم الكلام ، ومنها التاريخ والتراجم والجغرافية ، ومنها الرياضيات والموسيقى والطب والصيد والفنون الحربية والفروسية إلخ .

فإذا مارجعنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم (٣٧٧ هـ) وجدناه يقسم العلوم والفنون فى عصره إلى عشرة أقسام ، ويقول إنه يذكر فى كتابه هذه الأصناف كلها ، وأسماء مؤلفيها وأخبارهم .

وجاء بعده طاشكبرى زاده (٩٦٩ هـ) فألف كتابه (مفتاح السعادة) وجمع فيه ثلاث مئة علم وستة عشر ، وهى علوم كتب فيها العرب والمسلمون .

وتلاه حاجى خليفة (١٠٦٨ هـ) فألف كتابه (كشف الظنون) سجل فيه أسماء نحو ثمانية عشر ألف كتاب وخمس مئة ، وذكر أنه رأى بعينيه ستة عشر ألف كتاب منها .

ثم جاء التهانوى (١١٥٨ هـ) فألف كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) ذكر فيه أكثر من ألفى مصطلح فى الثقافة العربية ، وعرف كلا منها فى دقة .

وهكذا يمتد الحديث عن المخطوطات التى كانت تعمر المكتبات العامة والخاصة ، وقد سلم كثير من هذه المخطوطات من عوادى الزمن وعوامل البلى ، وما تزال آلاف منها مفرقة فى مكتبات العالم .

فمثلا فى مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التى بها ، وفى مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف مخطوطة .

وفى مكتبة الأسكوريال أكثر من مئة ألف مخطوطة وهكذا الحال فى مكتبات لندن وفينا وموسكو وغيرها .

احمد الحوفى
عضو المجمع